قُوَةٌ ونَشَاط

لقد عُرف النبيُّ محمدٌ (ﷺ) بالقوة والحيوية والنشاط ، والشجاعة والإقدام, بل إن أصحابه رضي الله عنهم كانوا يجهدون أنفسهم إذا مشوا معه أو صحبوه إلى مكان ما، وهو غير مكترث، وكان قد تجاوز الخمسين من عمره .

قال أبوهريرة (رضي الله عنه): ''مَا رَأَيْتُ شَيْئاً أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللّهِ (ﷺ) كَأَنّ الشّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِه، وَمَا رَأَيْتُ أَحَداً أَسْرَعَ فِي مَشْيِه مِنْ رَسُولِ اللّهِ (ﷺ) كَأَنَّمَا الأَرْضُ تطْوَى لَهُ؛ إِنّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا وإِنّهُ لَغَيْرُ مُكْتَرِثٍ''.(١)

وعَن نافع بن جُبير بن مُطعم عَن عَليّ (رضي الله عنه) قَالَ:»لَمْ يكن النَّبِيُّ (ﷺ) بالطَّويل ولا بالقصير، شَثْنَ الكَفَّين(٢) والقدمين، ضخمَ الرَّأس، ضخمَ الكراديس(٣)، طويل المَسرُبة(٤)، إذا مشى تكفّأ تكفّياً (٥)كأنَّما ينحطُّ من صببٍ، لَمْ أرَ قبلَهُ ولا بعدَهُ مثلهُ (ﷺ).(٦)

وروي في صفته (ﷺ) أنه كان إذا زال زال تقلعا(٧)، ويخطو تكفؤا(٨)، ويمشي

(١) سنن الترمذي (وشرح العلل)،: المُجَلَّد الخَامس أبواب المَنَاقب عَن رَسُولِ الله٣)) ٤٥– بابٌ. لحديث رقم: ٣٧٢٨ ومسند الإمام أحمد.: المجلد الثاني مسند أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) (شثن الكفين والقدمين) بفتح المعجمة وسكون المثلثة وبالنون قال في النهاية أي أنهما يميلان إلى الغلظ والقصر، وقيل هو الذي في أنامله غلظ بلا قصر ويحمد ذلك في الرجال لأنه أشد لقبضهم ويذم في النساء انتهى.

(٣) (ضخم الكراديس) هي رؤوس العظام واحدها كردوس وقيل هي ملتقى كل عظمين ضخمين كالركبتين والمرفقين والمنكبين أراد أنه ضخم الأعضاء أي عظيم الألواح أو العظام أو رؤوس العظام وقال البغوي: الأعضاء .

(٤) (طويل المسربة) بفتح الميم وسكون السين وضم الراء الشعر المستدق الذي يأخذ من الصدر إلى السرة

(٥) (تكفا تكفيا) قال في النهاية أي تمايل إلى قدام.

(٦) سنن الترمذي (وشرح العلل)، : المُجَلَّد الخَامس. أبواب المَنَاقب عَن رَسُولِ اللَّه(ﷺ). ٣٧– بابٌ. الحديث رقم: ٣٧١٦ قال أبو عيسى: هَذا حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ.

(٧) التقلع، رفع الرجل بقوة

(٨) والتكفؤ :الميل إلى سنن المشي وقصده

هونا[١]، ذريع المشية[٢] إذا مشى كأنما ينحط من صبب.... [٣]

وقال الطيبي: (ذريع المشية) أي يرفع القدم من الأرض ثم يضعها، ولا يمسح قدمه على الأرض كمشي المتبختر، كأنما ينحط من صبب أي يرفع رجله عن قوه وجلادة، والأشبه أنّ تكفأ بمعنى صبَّ الشيء دفعةً .[٤]

كل هذا مع تحقق الوقار والسكون ، ورعاية الاقتصاد في مشيته ممتثلاً قوله تعالى { وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا}[٥] وقوله تعالى { وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ } كما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله(ﷺ):إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَلاَ تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ وَأْتُوهَا تَمْشُونَ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَاقْضُوا».)[٦]

فلم يعرف النبي (ﷺ) حياة الوهن أو الضعف أو الانكماش ، بل كان قوياً في بنيانه ، كما كان قويا في عقيدته وأخلاقه وشمائله .

يذكر لنا التاريخ وبعد مرور خمسين سنة من عمره (ﷺ) أنه خرج إلى الطائف التي تبعد عن مكة نحو خمسين ميلا سيراً على الأقدام ذهابا وإياباً وتعرض (ﷺ) خلال رحلته هذه لأذى القوم حتى إن زيد بن حارثة يحاول عبثاً الدفاع عنه، حتى أُصِيبَ في قدميه وسالت منها الدماء ؛ فهتف يقول: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم

(١) والهون الرفق والوقار

(٢) والذريع الواسع الخطا؛ أي أن مشيه كان يرفع فيه رجله بسرعة ويمد خطوه؛ خلاف مشية المختال، ويقصد سمته؛ وكل ذلك برفق وتثبت دون عجلة كما قال: كأنما ينحط من صبب

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي : الجزء ١٣ من الطبعة.سورة الفرقان. الآية: ٦٣

(٤) عون المعبود، شرح سنن أبي داوود للآبادي ١ – كتاب الطهارة٥٥ – باب في الاستنثار. الحديث رقم ١٤٤ :

(٥) الآيتان من سورة لقمان ١٩/١٨

(٦) البخاري : الجزء الأول. ١٤ – كتاب الأذان. ٢٠ – باب: قول الرجل: فاتتنا الصلاةالحديث رقم: ٦٠٩ صحيح مسلم بشرح النووي،: كتاب المساجد ومواضع الصلاة.باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، والنهي عن إتيانها سعيا.

يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك [١]

فلم يعرف النبي(ﷺ)اليأس يوماً ، ولم يتطرق إليه الضعف، فليس هناك أقتل لروح المقاومة من اليأس .

وهذا نموذج آخر للقوة والنشاط الذي كان يتحلى به رسول الله (ﷺ) وكيف كشفت له القوة عن آفاق المستقبل في رحلة الجهاد المضني عندما كان يشارك أصحابه في حفر الخندق.

فبينما جماعة من المسلمين[٢] يعملون في حفر الخندق في الجزء المخصص لهم، ومعهم سلمان الفارسي؛ إذ ظهرت صخرة بيضاء مَرْوة [٣] فكسرت حديد معاولهم وشقت عليهم؛ فقالوا يا سلمان: ارقَ (اصعد) إلى رسول اللّه (ﷺ) فأخبره خبر هذه الصخرة، فإما أن نعدل عنها فإن المعدل قريب، وإما أن يأمرنا فيها بأمره؛ فإنا لا نحب أن نجاوز خطه [٤] فرقي سليمان حتى أتى رسول اللّه (ﷺ) وهو ضارب عليه قبة تركية، فقال يا رسول اللّه، بأبينا أنت وأمنا، خرجت صخرة بيضاء من

---

(١) وهذا يسمى دعاء الطائف وذلك أن المصطفى صلى اللّه عليه وسلم لما مات أبو طالب اشتد أذى قومه له فخرج إلى الطائف رجاء أن يأووه وينصروه فأذاقوه وآذوه أشدَّ من قومه ، ورماه سفهاؤهم بالحجارة حتى دميت قدماه، وزيد مولاه يقيه بنفسه حتى انصرف راجعاً إلى مكة محزوناً فدعى بهذا الدعاء ، فعند ذلك أرسل إليه ربه ملك الجبال فسأله أن يطبق على قومه الأخشبين فقال::بل استأني لعل اللّه أن يخرج من أصلابهم من يعبده) السيرة النبوية، لابن هشام: المجلد الثاني سعي الرسول (ﷺ)إلى الطائف يطلب النصرة ، وموقف ثقيف منه وشكواه (ﷺ)إليه تعالى. و الجامع الصغير. لجلال الدين السيوطي: المجلد الثاني.[تتمة باب حرف الألف]. الحديث رقم: ١٤٨٣ التخريج (مفصلا): الطبراني في الكبير عن عبد الله بن جعفر ، تصحيح السيوطي: حسن

(٢) قال عمرو بن عوف: فكنت أنا وسلمان وحذيفة بن اليمان والنعمان بن مقرن المزني، وستة من الأنصار، في أربعين ذراعا

(٣) والمرو الحجارة البيض، الواحدة مروة. وسمي، بالواحد، الجبل المعروف بمكة. قال في القاموس: المروة حجارة بيض براقة ثوري النار أو أصلب الحجارة.

(٤) أي الخط الذي رسمه لهم.

الخندق مروة فكسرت حديدنا، وشقت علينا، حتى مانحيك فيها قليلا ولا كثيراً. فمرنا فيها بأمرك فإنا لا نحب أن نجاوز خطك؛ فهبط رسول الله (ﷺ) مع سلمان الخندق وأخذ المعول من سلمان (رضي الله عنه)

فقال: باسم الله ثم ضربها فنثر ثلثها ، وخرج منها نور أضاء ما بين لابتيها يعني لابتي المدينة. فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة من مكاني.

ثم ضرب الثانية، فقطع ثلثا آخر، فبرقت برقة من جهة فارس أضاءت ما بين لابتيها. فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن؛ فأبشروا بالنصر فسر المسلمون.

ثم ضرب الثالثة وقال: باسم الله فقطع بقية الحجر وخرج نور من قبل اليمن فأضاء ما بين لابتي المدينة حتى كأنه مصباح في جوف ليل مظلم. فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لا بصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة.[١]

وجاء في صحيح البخاري عن جابر (رضي الله عنه)قال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة [٢] فجاءوا النبي (ﷺ)فقالوا: هذه كدية [٣]عرضت في الخندق! فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر [٤] ولبثنا ثلاثة أيام نذوق ذواقاً [٥] فأخذ النبي (ﷺ)المعول فضرب في الكدية فعادت كثيباً أهيل .[٦]. [٧]

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور. للإمام جلال الدين السيوطي : المجلد السادس التفسير الآية /١٠-١٢ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. للإمام الطبري : الجزء ٢١. سورة الأحزاب. الآية: ١٠

(٢) أي قطعة من الأرض لا تعمل فيها المعاول.

(٣) (كدية) قطعة صلبة من الأرض لا يؤثر فيها المعول.وهي كالصخرة تمنع حافر البئر إذا وصل إليها من الحفر

(٤) أي من ألم الجوع أو خشية انحناء صلبه.

(٥) أي من جنس ما يطعم أو يشرب

(٦) صحيح البخاري، الجزء الثالث. ٦٧ – كتاب المغازي. ٢٧ – باب: غزوة الخندق، وهي الأحزاب. الحديث رقم:٣٨٧٥/٣٨٧٦

(٧) عن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده قال: «خط رسول الله (r)الخندق عام الأحزاب، فخرجت

وهاك نموذج آخر يدل على قوة الرسول صلى الله عليه وسلم في إغاثة الملهوف، ونجدة المستغيث؛ يقول أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ(رضي الله عنه): كَانَ رَسُولُ اللّه (ﷺ) أَحْسَنَ النّاس، وَكَانَ أَجْوَدَ النّاس، وَكَانَ أَشْجَعَ النّاس، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَة ذَاتَ لَيْلَة ، فَانْطَلَقَ نَاسٌ قِبَلَ الصّوْت[1] فَتَلَقّاهُمْ رَسُولُ اللّه (ﷺ) رَاجعاً، وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصّوْت، وَهُوَ عَلَى فَرَس لأَبِي طَلْحَةَ عُرْي [2] فِي عُنُقه السّيْفُ وَهُوَ يَقُولُ: «لَمْ تُرَاعُوا. لَمْ تُرَاعُوا». قَالَ: «وَجَدْنَاهُ بَحْراً. أَوْ إِنّهُ لَبَحْرٌ» [3]

وقد كان هذا الفرس معروفا بالبطء والعجز ، وسوء السير وضعف السرعة ؛ فلما رَكِبَهُ رسولُ الله (ﷺ) تحولَ بفضل الله تعالى إلى فرس سريع يسبقُ من سابَقَه.

قَالَ حَمَّادٌ [4]: وَحَدَّثّني ثَابِتٌ أَوْ غَيْرُهُ قَالَ: كَانَ فَرَسَاً لأَبِي طَلْحَةَ يُبَطَّأُ[5]. فَمَا سُبِقَ، بَعْدَ ذلِكَ الْيَوْمِ.

لنا من الخندق صخرة بيضاء مدورة، فكسرت حديدنا وشقت علينا، فشكونا إلى رسول الله (ﷺ)، فأخذ المعول من سلمان، فضرب الصخر ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لا بتي المدينة حتى لكأن مصباحا في جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله (ﷺ)، وكبر المسلمون، ثم ضربها الثانية، فصدعها وبرق منها برقة أضاء ما بين لابتيها، فكبر وكبر المسلمون، ثم ضربها الثالثة، فصدعها وبرق منها برقة أضاء ما بين لابتيها، وكبر وكبر المسلمون، فسألناه فقال: أضاء لي في الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب =الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها،وأضاء لي في الثانية قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، وأضاء لي في الثالثة قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبريل إن أمتي ظاهرة عليها، فابشروا بالنصر. فاستبشر المسلمون وقالوا:الحمد لله موعد صادق بأن وعدنا النصر بعد الحصر، فطلعت الأحزاب فقال المسلمون {هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما} وقال المنافقون: إلا تعجبون! يحدثكم ويعدكم ويمنيكم الباطل، يخبر أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة، ومدائن كسرى، وإنها تفتح لكم، وإنكم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا، وأنزل القران {وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا}الدر المنثور في التفسير بالمأثور. للإمام جلال الدين السيوطي:المجلد السادس التفسير الآية/١٠-١٢

(١) (قبَل الصوت) أي نحوه..

(٢) (عُرْى) أي لا سرج عليه ولا غيره

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الفضائل.باب في شجاعة النبي عليه السلام، وتقدمه للحرب.

(٤) سنن ابن ماجه.: الجزء الثاني. (٩) باب الخروج في النفير.الحديث رقم: ٢٧٧٢

(٥) (يبطأ) أي يقال: إنه بطيء في الجري]

وقد كان هذا الفرس يسمى بالمندوب ، فعَنْ أَنَس، (رضي الله عنه)قَالَ: كَانَ بِالْمَدِينَة فَزَعٌ؛ فَاسْتَعَارَ النّبيّ (ﷺ) فَرَساً لأَبي طَلْحَةَ يُقَالُ لَهُ مَنْدُوبٌ ؛ فَرِكِبَهُ فَقَالَ: ''مَا رَأَيْنَا مِنْ فَزَعٍ، وَإِنْ وَجَدْنَاهُ لَبَحْراً'' أَي وجدنا الفرسَ واسعَ الخُطَا.

قال القاضي: وقد كان في أفراس النبي (ﷺ) مندوب فلعله صار إلى أبي طلحة .

قال الإمام النووي: ويحتمل أنهما فرسان اتفقا في الاسم. ثم قال : وفي هذا الحديث فوائد: منها بيان شجاعته (ﷺ) من شدة عجلته في الخروج إلى العدو قبل الناس كلهم بحيث كشف الحال ورجع قبل وصول الناس .

وفيه بيان عظيم بركته ومعجزته في انقلاب الفرس سريعاً بعد أن كان يبطأ وهو معنى قوله (ﷺ): وجدناه بحراً أي واسع الجري.

وفيه جواز سبق الإنسان وحده في كشف أخبار العدو ما لم يتحقق الهلاك.

وفيه جواز العارية وجواز الغزو على الفرس المستعار لذلك.

وفيه استحباب تقلد السيف في العنق، واستحباب تبشير الناس بعدم الخوف إذا ذهب، ووقع .

وفيه جواز تسمية الفرس؛ كما في هذه الأحاديث التي سبق ذكرها .